محمد عبدالله

ودوره المؤثر فى المحاماة *

كان مبدأ " الاقتناع"، ولا يزال، هو أساس القضاء الجنائى، فى رحابه يحلق القاضى فوق السحاب ناشدا الحقيقة الفعلية الواقعية لأن المصائر والحريات والحيوات لا تحتمل هنة مهما صغرت .. ومن هنا دلفت المرافعة الشفوية لتكون هى روح القضاء الجنائى، فالمنطق الجنائى لا يقوم على منطق الحساب والتقييد، وإنما على سنة الغوص والتعمق والاستشراف والتحليل .. وكلها مجالات عميقة عريضة لسبر النفس الإنسانية التى تطل إطلالا حاضرا فى الدعاوى الجنائية بعامة، وحكمة ذلك واضحة، فاشتراط الدليل الكتابى على واقعة السرقة أو النصب أو الاختلاس أو إهدار المال العام - تصور سقيم ..لأن الجانى لا يقدم " كتابة " صك إدانته، كما أن اشتراطه سقم أخطر فى جرائم القتل والبلطجة والعدوان والضرب المفضى إلى الموت أو إلى عاهة، وفى الجاسوسية أو الخيانة وما إلى ذلك من صور عديدة ومتباينة للجرائم .. فليس يعقل أن يقترن ارتكاب الجرائم بتقديم الجانى دليلا كتابيا على فعلته، بل إن الفرض فى عالم الجريمة أن الجانى - فيما عدا جرائم التزوير فى محررات - يسعى لطمس الأدلة كتابية كانت أو مادية أو فنية، لأن ضبط هذه الأدلة فيها هلاكه الذى يريد أن يتحاشاه ليفر بجريرته أو بجريمته .. ولكن شهادة الشهود، والأدلة المادية والفنية

---

* عن كتابى : رسالة المحاماة - دار الشروق سبتمبر ٢٠٠٨

بعامة، وعلم الأدلة الجنائية من بصمات وتحاليل وأطياف، هى عدة القاضى الجنائى فى تكوين عقيدته التى يأبى - ويأبى العدل - أن تقوده أو تسلسه لغير الحقيقة " الفعلية " " الواقعية " التى لا يرضى عنها بديلا .. وسماع الشهود واستعراض الأدلة يتم شفاهة بتحقيق المحكمة، وتتناولها تحليلات ومرافعات كل من النيابة والدفاع فى ساحة القضاء .. هذا العلم الواسع يتنادى بالغوص والتحليق والتحليل .. هذه هى بضاعة الاتهام والدفاع، وهى هى عالم القاضى الذى ينشد الحقيقة ويستخرج فى الوصول إليها كل ما لديه من أدوات الاقتناع من نباهة وفطانة وذكاء وتحليل وعلم واستقراء واستكناه وإبحار فى عوالم شتى تلتئم فيها مطومة قدراته لهدايته إلى الصواب والحق الذى يريد ويريده المجتمع منه .

من أجل هذا وغيره كانت " المرافعات " هى الشغل الشاغل للمحامين والمحاماة، كيف تكون، وبأى أسلوب، وبأى لغة، وبأى صيغة، وبأى إيقاع .. هذه كلها خواطر تثيرها المرافعات وتستلزم الاختيار والانتقاء والاتباع .. لا يعدم فرسان المحاماة نصائح يلقيها شيوخ المهنة والسابقون من كبار أساتذتها .

نسمع فيما نسمع لنجم المحاماة الأستاذ الكبير أحمد رشدى يتحدث عن المرافعة فى الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية الصادر ١٩٣٧ فيقول : - " المرافعة رسالة يؤديها المحامى عن صاحب الحق إلى من يملك إقرار الحق أو إنشاءه ؟ إذن لا مناص من أن يتروض المحامى - لتبليغ هذه الرسالة - صدق اليقين وقوة البرهان، وأن يرى كيف يمهد سبيلها إلى الأسماع ثم إلى القلوب بلطف الأداء ورفق العبارة وحسن الخطاب .. فالمرافعة ليست بذلك هى الفصاحة وحدها، ولا هى العلم بالقانون وحده، ولكنها قبل أن تكون غزارة علم وزخرف كلام، يجب أن تكون حول الدعوى سياسة ويقظة

واستبصارا، وحول الدليل حذقا فى الأداء ولباقة فى إيراد الأمر وإصداره " هكذا تكون المحاماة لمن أراد ! .

هذه المبادى العامة لا خلاف عليها، ولكن المحاماة نفسها - ومنها المرافعات - قد مرت عبر مدارس مختلفة، ابتداءً بمدرسة الخطابة اللغوية البيانية المعتمدة - فقط - على الجزالة والبديع والمحسنات اللفظية من جناس وطباق ... إلخ، وكان ذلك هو الطابع الغالب على المحامين فى بواكير المحاماة .. حين كان لا يشترط فى المحامى - بل والقاضى - ان يكون حاصلا على إجازة الحقوق، ومع تقدم الفكر القانونى وتوافر الأعداد المناسبة لإمداد القضاء والمحاماة بحاصلين على دراسات قانونية، إنتقلت المرافعات ومعها المذكرات والأحكام نقلة نوعية احتل فيها القانون مكانه، ووجدت الحجة القارعة والبرهان الفنى مكانهما فى المرافعات وفيما تقره وتأخذ به الأحكام .. هذه المرحلة لم تكن مرحلة واحدة، وإنما تداخلت فيها حلقات مثلتها أجيال تبعا لابتعادها التدريجى عن المحسنات اللفظية البحتة واقترابها من القانون وعناصره وحججه وأساليده مع أسس الاستدلال وقواعده وفنونه .

على أن هذا لم يكن حسب " المرافعات " وأدائها من التطور، فالوقت المتاح الآن للمترافع أضيق يقينا من الوقت الذى كان متاحا له فى الزمن الفائت، ولغة الخطاب الآن - ومفردات اللغة - ليست كلغة الخطاب ومفرداته فى الزمن الغابر، وظروف الأداء التى تمارس فيها المرافعات اليوم ليست كالظروف التى كانت .. والمحامى الذى لا يدرك التطورات التى تزحف على " المرافعة " يفصل نفسه عن الأداء الواجب الذى هو غايته فى محراب العدالة .. فليست المرافعة محض خطابة .. هى فرع عليها : نعم، يجزئ فيها الإطلال على كتاب " الخطابة " لأرسطو طاليس، وعلى مؤلفات سير ومواطن

الفن والإتقان فيمن اشتهروا بالخطابة بدءاً من شيشرون ومرورا بنماذج عديدة فى الغرب والشرق .. ذلك أن المرافعة خطاب " خاصة " إلى " خاصة "، فيها من الخطابة ولكن بمعناها العصرى الذى يلائم روح وظروف العصر، وطبيعة المحاكمات وظروفها ولغة الخطاب فيها وما تستلزمه .

على أن محمد عبدالله محمد ـ صاحب دور ريادى فى تحقيق نقلة نوعية وكيفية فى الأداء فى المحاماة .. حين رأيت أستاذى وأبى بالروح والعقل، الدكتور محمد عبد الله محمد ـ مدافعا فى قضية رشوة أمام محكمة جنايات القاهرة برئاسة المرحوم المستشار صلاح عبد المجيد فى أبريل ١٩٧٧، كانت كل معلوماتى عنه من أحاديث متفرقة لأبى رحمه الله، يذكره بالخير والتقدير والإعجاب، ويصنفه ضمن عباقرة المحاماة، وأنه علامة متميزة فى جيلهم . ولكنى لم أكن رأيته حتى ذلك اليوم من ابريل ١٩٧٧ . سبقه فى المرافعة بالقضية وزير سابق للعدل، أصغر سنا وتخرجا، ولكنه لم يجد بأسا فى أن يسبق الأستاذ الأكبر فى المرافعة .. مادام سيادته كان وزيرا، ولا وجد الأستاذ الكبير غضاضة فى ذلك .. كان الوزير السابق مترافعا ملحوظا، طلق اللسان، متدفق العبارة، ولكن لاحظت أن الحبل بينه وبين المنصة مقطوع، وأن الغفوة فى خفقة سريعة ربما اخذت أحد عضوى المحكمة، حتى إذا ما أنهى الوزير السابق مرافعته فى ساعة ونصف .. شدنى رجل قصير ممتلئ أصلع الرأس، وقف بخفة ظل يستأذن المحكمة فى أنه لا بد لمشيخته أن يقول شيئا بعد مرافعة زميله الفخيمة، ويستأذن فى سمع دقائق ليس إلا .. رأيت الوجوه على المنصة قد أقبلت وأشرقت، ولمحت احتفالا بالرجل دعانى أن أسأل من يكون، فقال جارى إنه الأستاذ محمد عبد الله محمد .. راقبته فى شغف بانبهارى السابق الذى زرعه أبى

رحمه الله فى صفحة وجدانى من أيام الدراسة، فلفتنى أنه حريص على ألا ينقطع الحبل والانتباه بينه وبين المنصة، لا يتقيد بألفاظ متقعرة، أو يحرص على فخامة متعمدة، إنما ينساب فى سهولة ويسر، ولكنها قد أخذت على المحكمة - هكذا لاحظت - كل انتباهها .. فرغ من مرافعته القصيرة، ولكنه ضرب فيها الاتهام ببراعة وبالسهل الممتنع - فى ثلاثة مقاتل لم أرها فى مرافعة الساعة ونصف للمترافع السابق، ثم انسحب من أمام المنصة وهو ينظر فى ساعته ويعتذر صاحكا بأنه سرق ثلاث دقائق زيادة عن السبعة التى وعد بالالتزام بها .. كانت الوجوه متبسمة محتفية، ثم بعد المداولة صدر الحكم بالبراءة وأنا أرقب هذا الدرس فى شغف وإعجاب .. يومها لم أجد فرصة للحديث إليه، ولا لتعريفه بنفسى.. ثم مضت شهور، فوجدتنى من موافقات المقادير إلى جواره والأستاذ أحمد الخواجة فى جناية عرض رشوة متهم فيها زميل منظورة فى صيف ١٩٧٧ أمام محكمة عسكرية عليا فى العباسية، وكانت القضية مشدودة، والجو فيها متوترا، لأن الرشوة المعروضة كانت على أحد أمناء السر لإحدى دوائر المحاكم العسكرية العليا .. على قدر قلقى على الزميل من التوترات المحيطة مع أملى فى تجنيبه مخاطر رأيت نذرها قادمة، على قدر ما تمتعت بصحبة الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد على مدار أسابيع امتدت إليها المحاكمة .. لاحظت فيما لاحظت أن الأستاذ أحمد الخواجة، شديد الأحترام والتوقير للأستاذ محمد عبد الله، يبذل له من الإجلال ما يبذله التلميذ لأستاذه .. أسرّ إلىّ أحمد الخواجة، وكانت هذه بداية صداقة عريضة عميقة جمعتنا، أن محمد عبد الله محمد من فلتات المحاماة، وأنه حدوته تكاد تكون بلا نظير .. راقبت الرجل بحب وانبهار على مدى الأسابيع الثلاثة، وتمتعت بصحبته بفترات الإستراحة - الطويلة

أحيانا ـ التى كانت تتخلل الجلسات .. جالسته واستمعت إليه، وكانت الحياة مليئة فى ذلك الوقت بقضايا لافتة كان من الطبيعى أن تدور حولها أحاديثنا .. الذى لفتنى فى البداية وأدهشنى، أنى لاحظت أن الأستاذ الكبير ربما عزّ عليه اللفظ فى الحديث فيتوقف لثوان يبدو فيها باحثا عن لفظ، فأقترح كلمة فلا يحفل، وثانية فلا أراه يقبلها .. ثم لاحظت أن ما تصورته " لألأة " فى البحث عن اللفظ، ليس عيًّا فى اللسان، وليس نضوبا فى معين المفردات لدى هذا الأستاذ الكبير، الذى عرفته من بعد يجلس إلى قاموس المحكم والمخصص لابن سيده يزجى بقراءته وقته كأنما يقرأ رواية مسلية، وعرفت أن حصاده فى اللغة العربية ـ فضلا عن الفرنسية والإنجليزية وبعض الإيطالية ـ حصاد هائل، وأدركت بجلساتنا الممتدة إبان المحاكمة أن تمهل الرجل الذى ظننته يحتاج إلى نحتى بما تصورت ـ ساذجا ـ أننى أمتلكه من محصول المفردات، إنما هو تمهل عالم مفكر، يبحث عن لفظ بعينه ـ لأنه كصانع الأرابيسك، سبق زمانه وفطر نفسه على ألا يختار إلا اللفظ المحكم المحدد العميق الدقيق المحدد الذى قصده .. تابعت هذا بشغف واجف، لأن ثقتى فى تدفقى تحولت إلى إشفاق من أن أكون سطحى التعبير، منصرفا للفصاحة اللفظية عن الفكرة العميقة، وظل هذا الإشفاق يتزايد، حتى انصرمت المحاكمة وأوصلته بسيارتى فى اليوم الأخير إلى بيته بشارع النور بقرب نيادى الصيد .. كنت أقود السيارة وهو إلى جوارى، فما دريت إلا والرجل يقول لى بحنو إنه سمعنى مترافعا، وأننى محام واعد، وأنه لا يعنى بذلك أننى الآن لست محاميا كبيرا، ولكنه يقصد أنه يتوسم أن أحقق المزيد فى خطواتى فى المحاماة .. لازلت أذكر عباراته الحانية : " يا رجائى، لدى ما أعطيه لك، فإذا وجدت لديك وقتا فلا تتردد فى زيارتى " .. قلت أين ؟ قال : فى

المكتب إن شئت، وفى البيت إذا أردت .. مر أسبوع على هذا الحديث وأثر الرجل يزداد عراضة فى وجدانى، وإشفاقى يربو ويتمكن منى أن يكون تدفقى محض فصاحة لفظية لا تتعمق تحت السطح كما رأيت الأستاذ الكبير يتعمق .. ظل هذا الهاجس يربو ويزداد حتى تمكن منى، وبدأ يؤثر فى قدرتى على التدفق، لأن صورة محمد عبد الله محمد لا تفارقنى .. حاضرة فى ذهنى وصفحة وعيى فى كل عبارة أحاول صياغتها فى مرافعتى !!

أصابنى - كما رويت فى موضع آخر - أصابنى ما يشبه الصدمة من أسلوب محمد عبدالله محمد، مع أننى لم أكن يوما من المنتمين لمدرسة البديع، بل وتأثرت باكرا بكتابات الأستاذ الكبير يحيى حقى وحرصه الواضح على التدقيق فى اختيار ونحت الألفاظ، وبكتابات الأستاذ الدكتور محمد مندور عن جرس العين البديل عن جرس الأذن الذى أصاب الصياغة العربية، وعما أسماه بالشعر المهموس الذى تتغلغل معانيه وينساب أثره كأنه الهمس تتلقاه العيون وبلا ضجيج يقرع الآذان .. إلا أن محمد عبد الله محمد فجّر أمامى عوالم هائلة، لفتنى فيه علم هائل غزير لا يستعرضه وإنما يتضح فى كل ما يتناوله، وإلمام هائل باللغة العربية فى القواعد والأصول، وفى الصرف والنحو، وفى المفردات والصيغ والتراكيب، بيد أنه يوارى هذا كله عن قصد لأنه منصرف إلى الغاية وهى التوصيل، وهو يتحقق بجعل الكلمة والعبارة فى خدمة الفكرة لا العكس .. لفتتنى هذه القدرة الهائلة على تقديم الموضوع على الذات، وعلى مجافاة " الاستعراض " الذى يستهوى أنصاف المتعلمين بينما صاحب هذا العلم الغزير يشفق عليك من استعراضه، ويسرب مراده إلى السامعين فى سلاسة وبساطة وتواضع لطيف لا إفتعال فيه .. انشغلت منبهرا بالنموذج العظيم فانحبس

لسانى إشفاقاً من الوقوع فى هوى : " الفصاحة " أو "الاستعراض"، وخوفا من أن تكون الفكرة قعيدة عن التحليق الواجب الذى رأيت فيه الأستاذ وكأنه طائر بفكره وحجته فوق السحاب !

* * *

متحرجًا مترددًا، قصدته فى مكتبه بعمارة يعقوبيان على غير موعد، بيد أن حفاوة الأب الأستاذ أزالت للفور حرجى وترددى، فانسبت أشكو إليه حالى وأننى منذ سمعته شككت فيما لدى وفقدت تدفقى، وهذا أخطر ما يتعرض له مرتجل الكلمة !!.. يا لعظمة الأستاذ، بحنان الأب هدأ روعى، وفرغ نفسه لى، ولا زلت أذكر عبارته لا أنساها قط وكأنه لا يزال ماثلا أمامى : " لا تخف .. إن معنى توقفك أن شجرتك طيبة وستورق " .. لمح الدهشة صامتة فى عينى، فتابع يقول إن معظم الناس يخرجون من الدنيا كما دخلوها، لا يتوقفون فى اندفاعهم المعتاد، ولا يتأملون ولا يراجعون، مثل هؤلاء يجافيهم النمو .. لأن النمو هو حصاد التوقف والمراجعة والتأمل .. وأن الوقفة التى أزعجتنى هى هى التى يجب أن تشحذنى، لأنها دالة على رغبة صادقة فى مراجعة النفس، و لاخوف بتاتا من مراجعة النفس، لأنها تهيئه لمزيد من الفهم والتعمق، وسبيل إلى النمو والتطور !

منذ ذلك اليوم لم افارق هذا الأب العظيم .. على مدى ربع قرن وحتى وداعه الدنيا سنة ٢٠٠٠ بعد أن جاوز التسعين بعامين، جاورته ولازمته، لأتلقى منه نبعاً فياضاً من الأبوة لعلها جاوزت أبوة الدم .. انقطعت عنى أبوة الدم بالرحيل المبكر لأبى رحمه الله وأنا فى الثالثة والعشرين قبل أن تتسع الفرصة للتلقى الفاهم الناضج الواعى وبعيدا عن شواغل رحلة الدراسة أو بمأمن من

تهلاكات لعب الصبا وأول الشباب، كانت أبوة محمد عبد الله أبوة
ادقة خالصة، جاءت فى أوان النضج والعقل والإخصاب ولم
قطع عطاؤها يوما على مدى ربع قرن، بل ولا يزال عطاؤها
اضرا فى حياتى بعد رحيله .. أذكر على الدوام أننى " صنعة
دى محمد عبد الله محمد " .. لم يكن الدرس الأول الذى تلقيته
ه إلا نقطة من محيط زاخر ظللت أغترف منه طوال ربع قرن
صفت بالأب الأستاذ .. لا يشغلنى إلا أن أستثيره بفكرة أو
سؤال أو بمعضلة، إلا وأتلقى منه رطبا جنّية لا تفيض بها إلا
جرة طيبة مورقة، وقلب عامر بالمحبة والإيثار وبأبوة حقيقية تجاوز
أعراق إلى فهم شامل للكون والحياة وإلى إدراك عميق بدور الآدمى
ى الحياة .. عطاء محمد عبد الله محمد الزاخر الفياض فرع على
طائه للحياة التى أمضى عمره مخلصا لفهمه العميق أن الحياة ذاتها
عمة ربانية ينبغى للحى العاقل أن يحافظ مخلصا على معناها .

* * *

اخترت الحديث عن الأستاذ الجليل محمد عبدالله محمد، ليس
قط لكونه صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تحصى، ولكن لأنه
ثل الواضح للنقلة الكبيرة التى قطعتها المرافعات والمحاماة بعامة
لخروج من الإنحصار اللفظى واللغوى إلى عالم الفكر والتأمل
براعة الاستدلال والاستنباط من قاعدة معلوماتية ومعرفية واسعة
عميقة .. كان الأستاذ الجليل هو معلم المعلمين فى عمق الاغتراف
ن زادها الذى وفره لنفسه عراضة وعمقا وكثافة على مدى عمره،
كان رجل الفقه، والقانون، والأدب، والشعر، والفن، والفلك، وكما
ن المعارف فى بحورها العديدة المتنوعة .. كان رحمه الله كالملاح
الغواص، يسبح ويغوص فى هذه العوالم ليستخرج اللؤلؤ والمرجان،
ليعطى المثل الأعلى على جوهر المحاماة كرسالة إقناعية أداتها اللغة

نعم، ولكن مادتها العلم والفكر، وبوصلتها العقل .. يتجلى ذلك في مقالاته وغالبية مؤلفاته القانونية : " في جرائم النشر " و " بسائط علم العقاب "، مثلما يتجلى في كتابه الرائع " معالم التقريب بين المذاهب الإسلامية "، أو في ديوانيه " العارف " و " الطريق " اللذين يحتويان دررا من الشعر العمودي في الفكر والكون والحكمة والحياة !

لم يكن غريبا أن يكون محمد عبد الله محمد قبلة العلماء والكبار، كان من المترددين عليه طلباً لعلمه وفضله، الأستاذ الكبير الدكتور على راشد، والأستاذ الكبير الدكتور عز الدين عبد الله، والسياسي الكبير فؤاد سراج الدين، والأستاذ الدكتور حسن الابراشي، والأستاذ الدكتور عبد المنعم الشرقاوي، ولا كان غريبا أن يكون نسيج وحده بين المحامين وأهل الفكر والأدب بعامة ..

كان محمد عبد الله محمد التجسيد الحي للالتفات الواعي لجوهر المحاماة ومعطيات المرافعة وأن المخاطر على اللغة تأتي في معظم الأحوال من الإلقاء المسموع، أو ما يسمى بالخطابة، والمرافعة فرع منه فهي لغة حديث لا لغة كتابة .. ذلك لأن الإلقاء المسموع يغري بجرس الأذن، مثلما يغري بالتنغيم الذي يؤثر في الوجدان .. بيد أن مشكلة المرافعة أنها ليست خطابة إلى عاديين، وإنما هي خطاب عقل - وينبغي أن تكون - إلى عقلاء علماء عارفين .. حسن السبك والصياغة ومعمار العبارة وشحنتها وأثرها مطلوب، ولكنه في النهاية يتجه إلى عقول .. هذه المخاطبة للعقول لها قانون خاص، قاعدته العلم والمعرفة، وأسلوبه الإستخلاص والإستنباط والإستدلال وتوظيف العلم وفنونه المختلفة ليكون في خدمة وجلاء وتقوية الحجة وتجليه ودعم البرهان .. وليس معنى هذا أن مشكلة المترافع مع اللغة قد إنتهت، فهو لا يزال وسيبقى مطالباً بإحسان التعبير -

وأولى مقوماته فى المرافعة " بساطة " التعبير وبعده عن التقعر والتركيب .. القارئ يستطيع فى تأنية أن يتابع الجمل والعبارات - الاعتراضية، ولكن السامع ليس فى مقدوره ملاحقتها ..

ليس معنى خطاب العقل مجافاة خطاب العاطفة، فالمرافعة لا غناء لها عنها فى البيان المؤثر المشود لأسباب الرأفة، ثم لا غناء لها عنها فى تصوير " الظروف "- ومجالها وارد ومطروح، سواء فى أثر البواعث، أو فى انطباعات الناس عن الخطر المحدق الذى يبرر - أو لا يبرر - الدفاع الشرعى .. معطيات المرافعات معطيات متنوعة، وهى لذلك تستلزم قاعدة حقيقية عريضة تنطلق منها وتبنى عليها، لذلك لم يكن مصادفة أن تأتى المرافعات تعبيرا عن امتلاء أو خواء صاحبها، وأن تترجم عن علمه وثقافته ولغته، وعن عقله وفكره وفهمه وعمقه ونباهته وفطنته وبصيرته وإحساسه .. هذه كلها ملكات وقدرات يتفاوت فيها المحامون كما يتفاوت الناس، ولكن مشكلة المحامى أو همه الكبير أنه فى تحد دائم وانشغال واجب بتنمية هذه الملكات والقدرات وإلا فقد مشروعية دوره فى المحاماة التى هى فى جوهرها حمل لأمانات الحقوق والمناضلة للدفاع عنها .. هذه المناضلة ليست محض كلمة للتباهى، وإنما هى معنى عميق له مستلزمات أعمق يجب على المحامى المدرك للمحاماة أن يصرف همه وعمره كله لتحصيلها والاستزادة منها !

كان أمثال محمد عبد الله محمد، فى المحاماة وغير المحاماة - ولذلك حديث آخر، بمثابة القاطرة التى نقلت جبلا بأكمله من عصر إلى عصر، وهم لا يزالون رغم الفراق - شعلة الضياء التى تنير الطريق وسط هجير الحياة وعتمة الأيام !